

عالمتي

سورة الفتح

فايز بن سعيد الزهراني



عالمتي سورة الفتح

فايز بن سعيد الزهراني

حقوق النشر لكل مسلم ومسلمة

2025-1447



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد..

فهذه فوائد وتأملات، دونتها في شتاء ١٤٤١هـ، حيث كنت أخلو في أسحار بضعة ليالي مع خُلص الأصحاب؛ أعني كتب التفسير، فكنت أقرأ تفسير سورة الفتح في بعضها، فيسر الله تعالى تدوين بعض النتائج أثناء القراءة.

وقد راجعتها الآن ورأيت عرضها بين يديك أخي الكريم، ولم أزد عليها، فما عرفت منها فالحمد لله على توفيقه، وما أنكرته فدعه واطرحه، فإنما هي تأملات لا تأصيلات، وكلنا يؤخذ من قوله ويُرَد.

وسورة الفتح سورة عجيبة، في سبب نزولها، وفي معالجاتها للمواقف، وفي تناولها للمفاهيم والأفكار، وفي صناعتها للمعايير الحقيقية والموازن الدقيقة. والأمر أكثر وأجل من أن يحيط به قلم، أو يعبر عنه لسان.

ربّ وفق وبارك وافتح على عبدك الفقير وسائر المسلمين بأنوار كتابك واهدنا به وإليه يا ذا الجلال والإكرام.

المؤلف

غفر الله له ولوالديه

٢ ربيع الآخر ١٤٤٧هـ

مدخل

في السنة السادسة من الهجرة دعا النبي ﷺ الناس في المدينة إلى المسير نحو البيت الحرام بمكة لأداء العمرة، ولما بلغوا عسفان جاء الخبر إلى النبي ﷺ بأن قريشاً عازمة على صده عن الدخول إلى مكة، وأنها جمعت له الجموع، وأنها قدّمت طليعةً من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد إلى كراع الغميم لصدّه عن الدخول إلى البيت الحرام. فسلّك رسول الله ﷺ بأصحابه طريقاً وعرة عبر ثنية المزارع غرباً، تجنباً للقاء طليعة الفرسان، وحرصاً منه على عدم القتال.

وحين وصل النبي ﷺ إلى الحديبية غرب مكة بركت ناقته، فقال الناس: خلأت القصواء! فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. والذي

نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها»^(١). وتوقف ﷺ عن محاولة المسير إلى مكة، فعسكر بالحديبية.

وأرسل ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه يفاوضهم على دخول مكة وعمره البيت الحرام، وأرسلت قريش الرسل إلى النبي ﷺ تفاوضه على الرجوع، وكان آخرهم سهيل بن عمرو، الذي عقد مع النبي ﷺ صلحاً اتفق عليه الطرفان.

وقد تضمنت بنود الصلح رجوع النبي ﷺ وأصحابه بلا عمرة، على أن يقضوها في العام التالي، كما تضمنت كف الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وتضمنت البنود عدم قبول النبي ﷺ لأي مسلم مكى يهاجر إليه، كما تضمنت جواز قبول قريش لأي شخص ممن مع رسول الله ﷺ يرجع إليها، وتضمنت البنود جواز دخول القبائل الأخرى في حلف مع أي

(١) البخاري ح ٢٧٣١.

من الطرفين.

قبل انتهاء الصلح، وفي جو من الاحتقان والغيط.. جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو من مكة مهاجراً، يرسف في قيوده، وألقى بنفسه بين المسلمين، فقال سهيل بن عمرو: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». فقال سهيل: والله إذا لم أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. فردَّ أبو جندل إلى قريش! كما كانت ثمة محاولات لاستفزاز المسلمين وجرحهم إلى الحرب، لكنها لم تفلح. وتم الصلح وبدأ سريان مفعوله.

كان هذا الصلح يمثل صاعقة على المسلمين، وهزة نفسية عميقة (دخل الناس من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون)^(٢) ومما يدل عليه أن النبي ﷺ حينما أمرهم بحلق

(٢) السيرة النبوية ٤١٦/٣.

رؤوسهم ونحر بُدْنهم امتنعوا، حتى إذا رأوه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك بنفسه - بمشورة من زوجه أم سلمة رضي الله عنها - قاموا فحلّقوا رؤوسهم ونحروا بُدْنهم. قال الراوي: (فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا)^(٣). وتحلل الناس من إحرامهم، وكانت مدة بقائهم في الحديبية عشرين يومًا، ولك أن تتخيل ما يعانيه المحرم إذا طال إحرامه، ثم تاهبوا للعودة إلى المدينة.

وفي طريق عودة المسلمين إلى المدينة وهم كسيرو الأنفس نزلت سورة الفتح! قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۚ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۚ (٣)﴾ [الفتح: ١-٣]. فقال النبي ﷺ: «أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»^(٤). فقال

(٣) البخاري ح ٢٧٣١.

(٤) البخاري ح ٤٨٣٣.

أصحاب النبي ﷺ له: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله تعالى
 قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
 إِيمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُحُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ لِيَدْخُلَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿[الفتح: ٤-٥] ٥﴾.

(٥) البخاري ح ٤١٧٢.

الدروس والفوائد

علمتني سورة الفتح أن الأحداث المؤلمة ربما تكون فتحاً عظيماً، فلا مكان لليأس إذن.

وأن الانتصار الحقيقي ليس في الميدان فقط، وإنما كذلك في الثبات، وأن المكسب الحقيقي لأعمالنا ليس في غلبتها وتفوقها، وإنما في الأجر المترتب عليها في الآخرة.

وعلمتني أننا لسنا وحدنا في معركتنا مع الباطل وأهله، فالله تعالى معنا بتدبيره ولطفه وحفظه ووجهه. فظنَّ بربك ظناً حسناً.

وأن الانكسارات ميلاد الانتصارات، فحين نزلت السورة على نبينا ﷺ سأله رجل: أفتح هو؟ فقال نبينا ﷺ: «نعم والذي

نفسى بيده إنه لفتح». فانتشر الإسلام وزاد عدد الداخلين لمكة في الفتح الأكبر قرابة ستة أضعاف أهل الحديبية.

علمتني سورة الفتح الحفاظ على بوصلة العمل والتركيز على الأهداف. خرج المسلمون بهدف العمرة؛ ومعهم السلاح احتياطاً، وحين خرج لهم خالد بن الوليد في كراع الغميم لصدّهم سلك النبي ﷺ بأصحابه طريقاً وعرة غرباً تجنباً للقتال رغم قدرته عليه، لأنه ليس هدفه حينئذ.

وعلمتني المفاضلة بين المصالح، فحين بركت ناقة نبينا ﷺ في الحديبية، توقف عن المسير وقال: «والذي نفسى بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

وعلمتني رؤية الخير في كل شر، وتلمّس الفرص في مواطن النكبات، لقد كان صلح الحديبية فرصة لإقامة تحالفات مهمة، إذ تنص البنود على قانونية ذلك. قال الزهري:

(فتواثبت خزاعة فقالت: نحن في عقد محمد وعهده)^(٦). حيث كانت قبل الصلح بحاجة إلى ذلك ولكنها في حرج منه.

وعلمتني أن الانفتاح الدعوي من المقاصد الدعوية. قال الزهري في ذات السياق: (فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه).

علمتني سورة الفتح ألا أتوقف عند أول صدٍّ، وأن أغير خريطة عملي بدلاً عن التوقف، فحين صدّ نبينا عن مكة وتوقف جهاد أهلها سار نحو خير وأدب اليهود وقضى على فتنهم، وأحدث فتح خير تحولاً أمنياً واقتصادياً إيجابيين ومفصلين، قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧) [الفتح: ٢٧].

(٦) السيرة النبوية ٣/ ٤٢٣.

وعلمتني أن ظروف الصراع قد تولّد بعض المواقف الخاطئة أو المرتبكة، وأن علينا تفهّم ذلك والتسامح في الحكم عليها. كان في نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الصلح شيئاً فما عاتبه نبينا ﷺ وما زجره. بل إن الصحابة تأخروا في حلق رؤوسهم ونحر بؤدهم، وما زجرهم.

وعلمتني أن الفتوحات الكبيرة ربما تقدمتها أحداث عاصفة، قال ابن القيم عن الحديبية: (كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله ﷺ وجنده، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه)^(٧).

علمتني سورة الفتح أن السكينة حال المصائب والمحن من أحسن العطايا. قال السعدي: (يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة

(٧) زاد المعاد ٣/ ٣٦٧.

والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التي تشوش
القلوب وتزعج الأبواب وتضعف النفوس^(٨).

وعلمتني أن الصبر على المحن وتوطين النفس لها يزيد
في الإيمان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
لِيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. فالله معك، يسكن قلبك
لتصبر، ثم يزيد إيمانك لأنك صبرت.

وعلمتني أن الله الحكمة البالغة، فإنه قد يدال على أهل
الإسلام ليمتحن الله صبرهم وليزيد إيمانهم وليتخذ منهم
الشهداء وليكفر عنهم السيئات وليدخلهم الجنات وليحل
عليهم الرضا والنعيم المقيم.

وعلمتني أن الناكثين لعهد الله والمنسحجين من سبيل الله
إنما يضررون أنفسهم ولا ينفعونها، لأن الله ناصر دينه وجنده،

(٨) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ١٦٦٧.

وأن هذا النكث لا يكون إلا نتيجة لسوء الظن بالله تعالى.

وعلمتني أن الظن بأن المسلمين قد انتهى أمرهم وأنهم لا

يُنصرون هو في حقيقته ظن سوء بالله، يستوجب غضب الله

تعالى، قال تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

﴿الفتح: ٦﴾.

وعلمتني أن الثابتين على الصراط؛ العاملين لإعلاء

الدين، المترقبين لنصر الله هم الذين يحظون بقرب الله تعالى

وتأييده ونصره ومعيته وثوابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ

إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ

وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

علمتني سورة الفتح أن الفتوحات يكون منها القريب،

ويكون منها البعيد في أصقاع الأرض، قال ابن عطية: (واتفقت

في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها

الروم، فكانت من جملة الفتح على رسول الله ﷺ، وسُرَّ بها هو والمؤمنون^(٩).

وعلمتني أن انتشار العلم النافع وانتشار الإيمان من جملة الفتح، قال ابن كثير عن صلح الحديبية: (وَأَمَّنَ النَّاسَ، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان^(١٠)). فكل سبيل تنشر فيه علماً نافعاً أو تهدي به الناس فهو فتح من الله يستوجب الشكر والحمد.

وعلمتني أن الهداية والثبات من نعمة الله عليك، فلا مجال للتفاخر، ولا مكان لتعيير الناس والشماتة بهم، فلو لا فضل الله تعالى ورحمته لكنت أحد الناكثين، انظر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. فهو سبحانه ابتداء الفضل وهو أتمه عليك.

(٩) المحرر الوجيز ١٢٦/٥.

(١٠) تفسير القرآن العظيم ٦٦٨/٦.

وعلمتني أن التخلّف عن العمل لنصرة الدين لا يجوز في دين الله. كانت سورة الفتح واضحة البيان في ذلك.

وأن الله تعالى لا تخفى عليه حقائق الأمور، وأنه مهما أبدت أعذارك فإنها لا تنجيك عند الله ما لم تكن مطابقة للحقيقة. قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

علمتني سورة الفتح أن قوة الإيمان واليقين بوعده الله تبعث النفس إلى العمل في نصرة الدين والرسول، وأن ضعفهما يخذل عنها، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وعلمتني أن الفقه الصحيح لا يفضي بصاحبه إلى التشاؤم والقعود وظن السوء، قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

وأن الاشتغال بالأهل ومعالجة الأموال وإصلاح

المعاش ليس عذراً حقيقياً في القعود عن نصرة الدين والرسول ﷺ، ولهذا عاب الله على المخلفين اعتذارهم به، قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ [الفتح: ١١].

وعلمتني أن قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝﴾ [الفتح: ١٢] تعني ظنهم بأن المسلمين يُستأصلون. خاب ظنهم. وقد جعل الله ذلك محالاً.

علمتني سورة الفتح أن الله تعالى عاقب المخلفين بمنعهم من الخروج مع نبينا ﷺ إلى غزوة خيبر لأن الله جعلها غنيمة لأهل بيعة الرضوان، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالِ

اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴿[الفتح: ١٥].

وعلمتني أن الله يُتبع الادعاءات الكاذبة بالامتحان الذي

يُظهر الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ
الْأَعْرَابِ سِتْرٌ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ يُقْتَلُونَ أَوْ يُسْلَمُونَ ۖ فَإِنْ
تَطِيعُوا يُوَفِّكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح: ١٦].

علمتني سورة الفتح أن قيمة المؤمن - نفسه وماله

وعرضه - عظيمة في الشريعة، ففي الوقت الذي يبذل نبينا ﷺ
قصارى جهده في تجنب القتال مع قريش؛ يأخذ البيعة من
أصحابه لقتالهم حين شاع أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان ﷺ.

وعلمتني أن رضا الله تعالى عن عبده هو أفضل المكاسب

وأثمن الغنائم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وماذا تساوي غنائم
الدنيا ومكاسبها إذا قورنت برضى الله تعالى!

وعلمتني أن الله يثيب على النية الصادقة ما لا يثيب على الفعل، وأنه لا تخفى عليه ما تضره القلوب، وأن للقلوب عبادة كما أن للجوارح عبادة، قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وعلمتني أن صدق النية يفضي إلى الثبات، انظر في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]. قال ابن جرير: (الطمأنينة والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له)^(١١).

وعلمتني أن الله تعالى إذا ابتلى عباده بما يكرهون من الأقدار ثم صبروا وصدقوا فإنه يعوضهم في الدنيا بفتح من عنده، قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. قيل: فتح خير^(١٢).

(١١) جامع البيان ٢١/ ٢٧٨.

(١٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٦٨٠.

وعلمتني أن اليقين وحسن الظن بالله يمنحان الفأل وترقب النصر، فحين ردت قريش المؤمنين؛ وعد الله بفتح فارس والروم، قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (١١) [الفتح: ٢١]. روي عن ابن عباس^(١٣).

علمتني سورة الفتح أن القوى العظمى -التي لا نقوى على مناجزتها- هي في قبضة الله وتحت قدرته، قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (١١) [الفتح: ٢١].

وعلمتني أن القدرة القتالية ليست المعيار الوحيد في اتخاذ قرار الحرب على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا أَلَدَبَرْتُمْ لَمْ يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) [الفتح: ٢٢]. فمع قوة المسلمين العسكرية إلا أن تجنب

(١٣) موسوعة التفسير المأثور ٢٠/ ٣١٠.

القتال في الحديبية كان أحسن وأكثر خيراً.

وعلمتني أن عقد صلح مع الكافرين لا يعني محبتهم والاندماج فيهم فإن الكفر أعظم من القتل.

وأن الإسلام يصنع المعجزات ويتنصر على المتجبرين الأقوياء. قال البغوي: (وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خولاً لهم حتى قدروا عليهم بالإسلام)^(١٤).

وعلمتني أن سنة الله التي لا تبدل أنه ينصر أوليائه ويقهر أعداءه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وِثْيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٣٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿[الفتح: ٢٢-٢٣].

علمتني سورة الفتح أن الحكمة أقوى من السلاح، وأن تأخيرك استخدام القوة رغم قدرتك عليها من الحكمة إذا

(١٤) معالم التنزيل ٣١٢/٧.

ترتب عليه نصرٌ أعظم، ولذلك امتن الله على المؤمنين بأن وفقهم إلى كف أيديهم بعد القدرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ [الفتح: ٢٤].

وعلمتني أنه ينبغي أن تكون النظرة أوسع وأشمل، فإن الله كف القتال في الحديبية لحكم، منها: وجود المؤمنين في مكة، والذين ربما يصيبهم أذى بسبب هذا القتال، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وعلمتني أن اندماج المؤمنين في مجتمع الكفار موجب للتريث وتدقيق النظر في المواجهة، وأنه لا يجوز إخراجهم من نطاق التفكير والحسابات.

علمتني سورة الفتح أن السياسة الشرعية ضربٌ من

ضروب المدافعة والجهاد، لا تقل شأنًا عن القتال في سبيل الله، في شدتها ووعورتها وفي مآلاتها أيضًا.

وعلمتني أن مردّ الأمور كلها إلى الله تعالى قدرًا وشرعًا. فهو الذي شرع القتال، وهو الذي كف القتال في الحديبية، والمؤمن يتقلب بين الرضا بالقضاء وإنفاذ أمر الله تعالى؛ فهو يتقلب بين عبودية وأخرى.

علمتني سورة الفتح أن سوق الهدي من مكان إقامتك إلى المسجد الحرام سنة نبوية، وقد ساق نبينا ﷺ في هذه الرحلة المباركة سبعين من الإبل، قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، معكوفًا: أي محبوسًا. ومحله: المسجد الحرام.

علمتني سورة الفتح أن الله تعالى يفتح على المؤمنين إذا رضي عنهم أكثر مما يستطيعون وأكثر مما يتوقعون، قال

تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ نَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١].

وأن نبينا ﷺ - وإن لم يحقق غرضه من العمرة - قد انتصر في الحديبية نصراً سياسياً، فإن التفاوض يعني الندية والاعتراف بالواقع، كما أن فكرة الصلح منشؤها من عند نبينا ﷺ فظفر بها، إضافة إلى عدد من الإجراءات ذات الأثر الإيجابي على نجاح الصلح.

وعلمتني أنه ليس من الهزيمة أن تمحو «بسم الله الرحمن الرحيم» وتكتب بدلاً عنها: «باسمك اللهم». بعض التغييرات والتعديلات الشكلية ليست هزيمة.

وعلمتني أن الشدائد مظنة وقوع الأخطاء، فلا ينبغي فيها التلاوم والتعيير، وإنما النقد المعتدل والنصح والاستغفار.

علمتني سورة الفتح فضل الزوجة الصالحة على زوجها وبركتها عليه، فأمر سلمة رضي الله عنها هي التي أشارت بأن

يتنقل نبينا ﷺ من الأمر بالحلق والنحر إلى المبادرة بالفعل.

علمتني سورة الفتح أن الظروف الشديدة لا ينبغي أن تثبطك عن الإيجابية والتفاؤل، وقد تجاوز أبو بصير عقبة «بنود الصلح»، وقدم دوراً إيجابياً كان له كبير الأثر على مجرى الأحداث، في نفس الوقت الذي لم يكن فيه عاصياً لأمر الله ورسوله. الإيجابية تنبع من ذاتك وإيمانك وليس من ظروفك.

وعلمتني أن الواجب تقوية نفوس المؤمنين عند الشدائد والخطوب. نزلت سورة الفتح وما فيها من مبشرات في وقت غم على المسلمين وخيبة وانكسار، بادي الرأي.

وعلمتني أن وجود الأقليات المسلمة في المجتمعات الكافرة هو جزء من وجودنا، والتفكير في مصلحة الإسلام لا يجوز أن يُغفل مصلحتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

علمتني سورة الفتح أن الصبر والوقار والطمأنينة وقت الاستفزاز: من السكينة التي ينزلها الله على قلوب المؤمنين.

وأن هذا الدين ما أنزله الله إلا ليعلو وليدوم وليبقى وليظهر، وهذه مسألة قد فرغ منها، فلا تقلق. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وعلمتني ألا أقدم رؤيتي للواقع على نصّ وعد الله مهما كان الواقع مقنعاً. فالله تعالى وعد بدخول المسجد الحرام والواقع أن قريشاً صدت عنه، لكن الله تعالى لا يخلف وعده فدخلوا في العام التالي، ثم دخلوا بعد ذلك العام فاتحين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ [الفتح: ٢٧].

وعلمتني أن الله تعالى يدفع عن الكفار ويبارك لهم ببركة وجود المؤمنين بينهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]، هذا معنى قول قتادة رحمه الله^(١٥).

علمتني سورة الفتح أن الإضرار بالمؤمنين الموجودين بين ظهراني الكفار «استضعافاً» يدخل في قوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]. ولهم أحكام سياسية ينبغي تعلمها.

وعلمتني أن المنافقين يجدون في الانكسارات فرصة للتشفي والشماتة، ويجدون فرصة لبث الريبة والتشكيك في وعد الله. لقد فعلوا ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

(١٥) جامع البيان ٢١/٣٠٧.

قال ابن عطية: (علم المسلمون أن تلك الرؤيا فيما يستأنفون من الزمن، واطمأنت قلوبهم)^(١٦).

وعلمتني أن الحمية مضرّة في مواطن التعقل والتأمل، قال أبيّ بن كعب: (لو حميتم كما حموا الفسد المسجد الحرام)^(١٧).

وأن أتّهم رأيي في حضرة النصّ الشرعي. قال سهل بن حنيف: (يا أيها الناس اهتموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أُرِدَ على رسول الله ﷺ أمره لرددته)^(١٨).

وعلمتني أن الشريعة الإسلامية دين مكتمل، شريعة جمعت العلم النافع «الهدى» والعمل الصالح «دين الحق». قاله ابن كثير والسعدي^(١٩) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

(١٦) المحرر الوجيز ١٣٩/٥.

(١٧) تفسير القرآن العظيم ٦٨٦/٦.

(١٨) تفسير القرآن العظيم ٦٩٤/٦.

(١٩) تفسير القرآن العظيم ٦٩٩/٦، تيسير الكريم الرحمن ١٦٧٦/٤.

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [الفتح: ٢٨].

وأن ظهور الإسلام وغللبته وقوته كما تكون بالسيف
والسنان تكون أيضاً بالحجة والكلمة والتعليم والبرهان.

وأن معرفة أخلاق العدو وقيمه وطرق تفكيره من
الحكمة التي يحبها الله تعالى. ونبينا ﷺ استفاد من هذا الأمر في
سيرته في الحديبية كما فعل مع سفراء قريش المتنوعة أخلاقهم
وصفاتهم.

علمتني سورة الفتح أن السكينة - والتي تعني الأناة
والصبر والطمأنينة - أشرف من الحمية، لذلك أضيفت إلى الله
تعالى، ووصفت بأنها منزلة من عنده.

وعلمتني أن المستقبل للإسلام لا محالة، وأن الله ناصر
دينه ومظهره على كل ديانة، وأنه جل في علاه أشهد نبينا ﷺ
بذاته المقدسة على تحقيق هذا الوعد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [الفتح: ٢٨].

علمتني سورة الفتح أن الرحمة بالمؤمنين والشدة على الكافرين مما يبتغى بهما فضل الله ورضوانه، كالركوع والسجود، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] (٣٠).

وعلمتني أن للإسلام سيماء وعلامة وهالة تظهر على محيا أهلها، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهي شيء لا يصطنعه الإنسان، وإنما هو نتيجة تظهر على وجهه وسمته في الدنيا والآخرة.

وعلمتني أن الإنسان يمكن التعرف عليه بالتعرف على أصحابه، فقد عرّف الله تعالى نبينا ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن بأصحابه.

علمتني سورة الفتح فضل الصحابة الكرام ﷺ، فقد أثنى

(٢٠) جامع البيان ٢١ / ٣٢١.

عليهم الله تعالى في القرآن والتوراة والإنجيل، وهذه فضيلة نادرة لا تكون إلا للصفوة من عباد الله، فسحقاً لمن لا يعرف لهم قدراً أو فضلاً.

وعلمتني أن الوصف في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] هو في حقيقته بشارة بعلو الدين وانتصار أهله وتكاثر عددهم ودخول الناس أفواجاً في الإسلام.

وعلمتني أن انتشار الإسلام وتمسك المسلمين بدينهم مما يغيط الكفار، قال تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعلمتني أن الواجب في أوقات الهزائم والانكسارات أن يحضرها حديث الاستعلاء الإيماني والتفاؤل بنصر الله.

خاتمة

الآن، وبعد قراءتي لتفسير «سورة الفتح» عند الأئمة والعلماء فهمت حديث نبينا ﷺ إذ قال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]^(٢١). الآيات.

وهناك فوائد لم أستطع كتابتها خشية الغلط، وخشية ألا أستطيع التعبير عنها بما يناسب فُتُفَهم خطأ، وأسأل الله التوفيق، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل. آمين.

والحمد لله رب العالمين.

(٢١) البخاري ح ٤٨٣٣.

سورة الفتح

فَإِزِيدْ سَعِيدَ الرَّهَرَانِي